التكيف سر بقاء الحياة

د. محمد محمود كالو

أصبحت الحياة المعاصرة أكثر تعقيدًا وصعوبة عمّا كانت عليه في الماضي، فالعولمة وما تبعها من الانفتاح على الأمم والشعوب والثقافات والحروب التي عصفت في العالم والأزمات الاقتصادية والصحية جميعها أثّرت على حياة الإنسان بشكل أو بآخر؛ فأصبح أقل قدرة على مواجهة مشاكله وهذا ما أدخله بقوقعة من الحزن الدائم.

أما التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة فهو سر بقاء الحياة، تأمل في الديناصورات بحجمها الكبير، حيث لم تستطع التأقلم مع تطور الحياة فانقرض.

ثم أين الـمَامُوث اليوم؟ وهو فيل ضخم منقرض كان يعيش في أوروبا الوسطى قبل مليون سنة، لقد انقرض لأنه لم يستطع التأقلم مع الواقع المتطور.

أما الكائنات الحية الباقية كالنمل والفيل والنحل أو الانسان فهي تحكي قصة الانتصار، لأنها استطاعت أن تتأقلم وتتكيف مع تطور الحياة، ولم ينته بل بقي إلى اليوم.

لذلك نحن في خضم عالم جديد ومتجدد ومتطور، إن لم نتكيف مع الواقع سننقرض، إن لم ننقرض فيزيائياً فإننا منقرضون حكماً، لا بد أن نتابع مسيرة الحياة ونتطور مع الواقع كي نبقى.

اسألوا أنفسكم: أين جوال نوكيا اليوم؟ لماذا انقرضت؟ لأنها فقدت التأقلم مع الواقع المتطور.

ثم لاحظوا على مستوى الامبراطوريات: كانت المملكة المتحدة البريطانية يقال عنها بأنها المملكة التي لا تغيب عنها الشمس؛ لأنها كانت كبيرة وواسعة ومترامية الأطراف، أين هي اليوم؟ لم يبق منها إلا جزءاً يسيراً على الخارطة.

وكذلك الدول، أين الدولة الأموية والعباسية والعثمانية؟ كلها اندثرت وانقرضت لأنها لم تستطع التأقلم مع الواقع المتطور بشكل مستمر.

ونحن إن لم نتطور باستمرار مع تطور الحياة سننقرض حكماً، فالأجيال تنتقل من جيل إلى جيل، والتكنولوجيا اليوم تتطور باستمرار، وقد وصلنا إلى الجيل الرابع فالخامس، ولا يمكن أن نرجع للوراء. كثير من علماء المسلمين الكبار اليوم لا يحسن استخدام الحاسب الآلي، ولا يستفيد من التكنولوجيا الحديثة، وهذا سيؤدي حتماً إلى الانقراض، لا بد من مخاطبة الشباب على أرض الواقع، وهم يتواجدون على البرامج التواصلية باللآلاف بل بالملايين (الفيسبوك، التويتر، أنستغرام، تلغرام وغيرها الكثير).

وحينما يكون حديث علمائنا غير مناسب لتطور الحياة المتسارعة؛ فلن يسمع لهم أحد، وكلكم يبحر في خضم بحر الشبكة العنكبوتية (السوشال ميديا) ويرى الكم الهائل من الشباب ممن يتابع الفنانين والمغنين والمشاهير من أصحاب القدوة السيئة أكثر من متابعة العلماء والمفكرين والمثقفين والمخترعين، إن تقوقع العلماء على أنفسهم وذواتهم جعل الشباب يهرب لغيرهم، ففي صفحاتهم لا تجد سوى الأدعية والأذكار والأوراد؛ فمع أهمية ذلك جداً أين خطابهم لشباب اليوم ومشكلاتهم الواقعية؟

وما أجمل الأثرِ الذي يُرشِدُ إليه أميرُ المؤمنينَ علِيُّ بنُ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عنه أنْ نُكلِّمَ النَّاسَ على قَدْرِ عُقولِهم وبما يَفهَمون، ونَترُكَ ما قد يَشتبِهُ عليهم ويَصعُبُ فَهمُه؛ حتَّى لا يكونَ ذَرِيعةً لهم إلى تكذيبِ اللهِ ورَسولِه، وعدَمِ تَصديقِهما؛ فإنَّ الناسَ إذا سَمِعوا ما لم تُحِطْ به عُقولُهم، فإنَّهم يُبادِرون إلى تَكذيبِه، فقال: (حَدِّثُوا النَّاسَ، بما يَعْرِفُونَ أتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ ورَسولُهُ) [رواه البخاري].

فلا بد من تطور الخطاب الديني، واستخدام الوسائل والمنصات الحديثة لمتابعة الأحداث وواقع الحياة، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، فهل نرضى أن نعيش لنحيا فقط، دون أن نكون شيئاً ذا تأثير في الواقع، وليس لنا بصمة في الحياة؟ حينها سننقرض حتماً!

قد تقول: لقد حاولنا كثيراً وفشلنا، أقول: يجب أن ندرك بأنَّ الفشل هو الخطوة الأولى على طريق النجاح، لذا عندما نمر بتجربة فاشلة لا يعني أننا ضعفاء أو أغبياء؛ فجميع العظماء عبر التاريخ مروا بتجارب فاشلة، فلنحاول أن نستفيد من هذه التجارب الفاشلة، بذلك فقط سنتمكن من التكيف مع متغيرات الحياة وتحقيق المزيد من النجاحات.

لنستثمر الفرص المتاحة، ولنحطم قيود المخاوف، فلا نقلق ولا نتوتر، بل نخطط للحياة، فالتخطيط يحمينا من تقلبات الحياة المستمرة، وبذلك يسهل علينا تحقيق ما نحلم به ونصبو إليه.